الفصل الرابع

الزواج

سنّة الله في خلقه ، كما يقول الالهيون ، وسنّة الطبيعة في كل ذي حياة ، كما يقول الطبيعيون . واذا كان الزواج سنّة ، او غريزة ، او شهوة ، فهو من مقتضيات الوجود . هو للانسان سعادة ، وللحيوان متعة وعادة ، اما الغاية فواحدة ، وهي تكاثر الجنس ، انساناً كان ام حيواناً.

والناس ، بالنظر الى الزواج ، اقسامٌ وافواج . منهم من يعتبره رابطة محكمة بين المتزاوجين ، تربطهم فرقاً فرقاً ، يسمّون الفرقة عائلة . ومنهم من يعتبره واسطة لنموّ الجنس في عائلة كبرى جامعة لا يفرق بين اعضائها فواصل ، ولا تعترف بانقسامات . ولقد تأثر الزواج بالثورات الاجتماعية في مختلف العصور ، فكان عرضة لنظمها وشذوذها . غير انه وسط كل المؤثرات ، وتحت ضغط كل الانظمة ، احتفظ

بقدسيته ، أكانت تلك مستمدة من الكتب الدينيـــة ، او من مبتدعات الشيع اللادينية ، او من تقاليد الجماعات الهمجية والبربرية . فهو للجنس ركنه وعماده ، وهو للناس رابطة لا تنفصم ، حتى ولو قدّر لهـذه الرابطة ان تفكّكها شكلاً قوانين معقولة مرعية ، او اعتبارات غاشمة كيفيـة .

واذا كانت الغاية الاساسية من الزواج اكثار الجنس ، واذا كانت هذه الغاية لا تتقيد بقيود في عالم الحيوان ، فهي على غير ذلك في عالم الانسان . فالاكثار هنـا اذا كان امراً مرغوباً فيه ، انما يجب ان تلازمـه جودة في النوع ، وتحسين في النسل ، درجاً عـــلى سنّة الارتقاء . ولهـــذا فالزواج في الانسان عنصر من عناصر التدرج البشري الى الهدف الاسمى . فزواجٌ غير مقيد بشروط ، وزواج يعقد كيفما كان ، هو حجرٌ رخوٌ في بنيان المجتمع ، فلا يلبث هذا ان ينهار ، وبانهياره انحطاط الامم والشعوب .

فاذا كانت النواميس الطبيعية والدينيـة ترغب باكثار الجنس ، فليكن هـذا الاكثار صحيحاً قوياً . واذا كانت الغاية من الزواج سعادة الزوجين فعـلى طالبي الزواج ان

يمهدوا السبيل لسعادتهم ويضمنوا الصحة لذريتهم ، فيخدمون اذ ذاك انفسهم ، ويعملون على اتحاف الجنس البشري بنسل مبارك . واليوم وسط هذه المدنية الطائشة ، حيث طغت على الشبيبة موجة من المفاسد والرذائل ، يتحتم على الافراد والهيئات المختصة ان توجه العناية الواجبة لتسد على هذه الشرور طريق التغلغل في اوكار العائلات . وما هو ذنب وليد لا يبصر النور إلا ملقّحاً بلقاح مرض خبيث فتّاك ينخر في جسمه النحيف ، فتولد معه العلّة ، ويشبّ على الاوجاع ، اذا قضى عليه سوء الطالع ان لا يموت وهو ابن يومه ؟ وما خطيئة البنين ليضرسهم حصرمٌ اكله الآباء في نشوة من نشوات الرذيلة والجهل ؟ فلتكن اذاً رقابة صحية على المتزوجين ، وليكن اول شروط الزواج شهادة صحية موثوقاً بها من طبيب مسؤول . واني اذ اقدر للحكومات الساهرة التي اتبعت هذه الطريقة الحكيمة حسن صنيعها ، اتقدم برجاء الى حكومتنا بان تتبناها ، فيأتي عملها في مصلحة الامة ويكفل لها نسلاً صالحاً .

اما الفتاة وهي الركن الاول من ركني الزواج ، والتي اخذناها موضوعاً للدرس ، جسداً وروحاً ، فانه يجدر بنا ان نتوقف قليلاً لنضع امامها صورة عن مدى اهميتها في التفاعل البشري .

لم تزل الفتاة بنظري مغبونة في امر زواجها . وستبقى كذلك ما دامت هي صاحبة الوجهة السلبيّة والرجل صاحب الوجهة الايجابية . ان عليها ان تنتظر من يأتي ليخطبها ويتزوجها ، وهو الذي يفتش وينتقي بضاعته من المعروضات. ومهما قيل ان الفتاة بما قد يكون فيها من سحرٍ وجاذبية تستطيع ان تكتسب قلوب الشبان ، فان هذا لا يسري إلاّ على القلّة من الفتيات . هو غبن في القسمة ، لا يزول ما دامت الفتاة غير مخيّرة في تقسيم مراحل حياتها بارادتها ومشيئتها .

ومع هذا وبالرغم من ان زواج الابنة هو في الاكثر وليد القدر والظروف ، فهناك امورٌ يجب على الفتاة وعلى اهلها ان يأخذوا بها الى ان تصبح الفتاة سيدة نفسها وحاكمة امرها .

ان زواج الفتاة لحدث خطير في حياتها ، يجب ان يعطى ما يستحقه من الاهتمام ، كما يجب ان يخضع لشرائع وانظمة تقيه كوارث الحدثان التي طالما عكرت على المتزوجين صفو الحياة وانزلت بهم وباولادهم شتى المصائب والويلات .

والزواج عقد يتم بين الزوجين ، يكمل عهداً قطعاه على العيش سوية مدى الحياة وتأسيس عائلة هي عضو في المجتمع الانساني . فعلى المتعهدين اذاً ، وعلى العاقدين ايضاً ان يقدروا خطورة الحدث ويتخذوا له جميع الوسائل اللازمة لجعله واسطة خير وبركة لا واسطة ويل ولعنة . وان اعجب ، فلاهتمام يبذل ، ولمسؤولية يشترك في تحمّلها الكثيرون من مقامات ومراجع مختلفة ، عندما يتم عقد بيع او رهن او دين ، بينما لا يُبذل جزءٌ منها عندما يكون العقد عقد زواج ، اين من خطورته خطورة دين او رهن او بيع .

انه يكفي لشاب وفتاة ان يلتجئا الى اول كاهن او شيخ ، ليبصم عقد زواجهما ، بعد منحهما بركة استمدها من صلاحية خلعوها عليه فكان استعماله لها في كثير من الاحيان اعتباطاً ، وكانت نتيجتها طعنة في صميم المجتمع .

لا اظن القارىء يطلب مني شواهد على هذا الابهام . فكل يرى في محيطه ، مهما كان ضيقاً ، شواهد عديدة لا تترك مجالاً للشك في هذا القول .

العلاج ؟ هذا هو :

ان يُنظر الى الزواج بالاهمية التي يستحقها ، وان لا يتولى

عقده إلا هيئة رسمية مسؤولة ، وان لا تتولاه هذه الهيئة إلا مستكملا جميع الشروط الصحية والاجتماعية .

ان الزواج سرّ مقدس ، قدسته الاديان ، وقدسه المجتمع ، اذ اعتبره ركنه الركين . ايجوز اذاً الاّ يكون هذا الركن صلباً وثابتاً ؟

اما والزواج عجين مختمر بخميرة التقديس ، فللكنيسة ان تباركه . ولما كانت السلطات الدينية في عصرنا محرومة من السلطان الذي تمتعت به في العصور الغابرة ، ولما كان لا بدّ لها من الرجوع الى السلطات الزمنية لاقرار مقرراتها ، فلماذا اذاً يبقى الزواج منوطاً بها ؟ أليس من الافضل ان يكون للسلطات الزمنية وظيفة العقد ، وللسلطات الروحيـــة حق منح البركة ؟ فالسلطات الزمنية والحكومية لها من قوتها وصلاحياتها وشرعاتها ما يؤهلها لأن تقوم بهذا العمل على وجهه الاكمل .

عقدٌ مدني ، وبركة روحية . هذا ما يجعل من الزواج رابطة يحرسها القانون ، ويباركها الدين .

الزواج الباكر

هنا في الشرق ميلٌ طبيعي لتزويج الابنة وهي دون

العمر الذي يخولها ان تتزوج وتصير ربة بيت . فكم من ابنة تزوجت وهي دون السابعة عشرة ، حتى والخامسة عشرة من عمرها . اما البنات اللواتي يتزوجن وهن دون العشرين فعددهن اكثر من ان يحصى . هذا ما يختص بالمتزوجات دون السن التي تحسن تسميتها سن الزواج . اما اللواتي يتأخرن في زواجهن ، فلا اتعرض لهن قط . فانا لا اعني ان الفتاة متى تجاوزت سناً معلومة حرم عليها الزواج ، حاشا ، فالابنة لها الحق بالزواج مهما كان عمرها اذ ليس البنون فقط هم الثمرة الشهية من الزواج . ان في هذا التفاعل البشري اكثر من لذة يستمتع بها المتزاوجون .

فاذا حصرنا بحثنا في الزواج الباكر تبين لنا انه ذو اضرار صحية واضرار اجتماعية . اما الصحية فهي ان الابنة في الخامسة عشرة ، او ما حواليها ، لم تكتمل اعضاؤها التناسلية . وان اكتملت هذه في تركيبها وتكوينها ، فهي لم تكتمل بعد في اتمام وظائفها .

خذ مثلاً : كثيراً ما يعاين الطبيب فتاة كهذه تشكو خللاً في حيضها الشهري ، بحيث يكون الحيض كثيراً او قليلاً ، منتظماً او غير منتظم ، دون ان يكون هناك سبب سوى ان مبيض الفتاة لم ينتظم عمله بعد . فاذا تزوجت

هذه الفتاة وتأخر حبلها ، لجأت ، او يضطرها اهلها ، الى اللجوء لتدابير ومعالجات مختلفة قد لا تخلو من الاضرار . فلو تأخر زواج هذه الفتاة الى بعد اكتمال نموّها التناسلي ، لارتاحت مما قد يعرضها له زواجها الباكر . ناهيك ان الزواج الباكر ، وما تقضي به المعيشة الزوجية ، لما يؤخر في اصلاح الخلل الوظيفي في المبيض ، اذ ان هذا ، عندما يكون في حالة الاضطراب وعدم الانتظام ، يحتاج الى الراحة لا الى الاجهاد الذي تتطلبه المعيشة الزوجية ، ولا سيما في اول عهد الزواج . ثم اذا حبلت هذه الابنة ، فهي معرضة لصعوبات في حبلها وولادتها لا تتعرض لها لو كانت اكبر سناً مما هي .

والفتاة بعد زواجها ، تدخل في طور جديد من الحياة . فالزواج مرحلة شاقة على الزوجة . وهو يتطلب تعديلاً جدّياً في حياتها . والواجبات الملقاة على الزوجة كبيرة جداً لا سيما عندما تصير امّاً . فانهماك الزوجة الفتية في معيشتها الجديدة ، والمسؤولية الكبرى التي تترتب عليها ، والحمل الثقيل الذي تشعر بوطأته ، تستوجب قوة بدنية وعقلية ، قد لا تكون اكتملت فيها بعد ، فترزح اذ ذاك تحت اعباء من المتاعب والهموم ، كثيراً ما تكون

سبباً لضعفٍ يطرأ على جسمها وانحطاط في قواها الطبيعية والعقلية ، فتضعف مناعتها ومقدرتها على مقاومة الامراض .

ان حياة الفتاة مقسومة الى مراحل متعددة ، وكل مرحلة لها خصائص ومميزات يجب الاّ تحُرم الابنة منها . ومرحلة البلوغ لا تقل هناءً ، ان لم تزد ، عن مرحلة الزواج الذي قد ترافقه شتى المشقات .

يحصل مما تقدم ان للزواج سناً يجدر بالفتاة ان تتقيد بها حفظاً لصحتها وصيانة لمستقبلها . اما حدود هذه السن فتختلف باختلاف البلدان والاقاليم . ففي البلدان الحارة ، مثلاً ، هي ادنى منها في البلدان الباردة والمعتدلة . اما في بلادنا التي تحسب من البلدان المعتدلة ، فان افضل سن للزواج هي سن العشرين . ولكن قد تتدخل بعض المؤثرات فتجعل تغيير هذا الحد مقبولاً . فالابنة القروية ، ذات البنية القوية ، التي تعيش اكثر اوقاتها في الهواء الطلق والشمس المشرقة ، تقتبل الزواج وهي اصغر من رفيقتها ابنة المدينة النحيلة الجسم ، الرازحة تحت وطأة المدنية الحديثة ، تسهر الى هزيع متأخر من الليل بين اللهو والرقص . الاولى لها من قوتها وصحتها ومناعتها ما يقاوم صدمات البلوغ والزواج ، بينما الثانية لا تقوى عليها ،

فتقع تحت اثقالها متعبة .

ثم هناك اضرارٌ اجتماعيـة من الزواج الباكر لا تقل اهمية عن الاضرار الصحية .

لقد سبق القول ان حياة المرأة مقسومة الى مراحل ، من الطفولة الى الشيخوخة ، لكل منها حدودها ووظائفها واستقلالها بمؤثراتها وملذاتها . فالابنـة في مرحـلة الطفولة ، كالطفلة تعيش ، تسرح وتلعب ، غـير مهتمة الا بنفسهـا ومرحها . ثم يأتي دور البلوغ . وهـذا ايضاً له مسراتـه وملذاته . ففي هذه الفترة تعيش الفتاة كزهرة في الربيع ، تعتز بنشاطها ، وتستلذ جمالهـا وتطلّع الناس اليها ، مـلء صدرها املٌ واشتياق . هي زهرة يانعـة ، تعطر بعبيرهـا الهواء ، وهي بهجة لعين الناظر ، ولؤلؤة في جبين المجتمع . هذه هي المرحلة التي تحبها الفتاة ، اذ تصل في ابانها الى قمة بهجتها واوج جمالها ، وهي دوماً تذكرهـا وتتغنى باطايب اوقاتها . فليس من الحكمة في شيء ان تحرم الفتاة منهـا قبل ان تدخل المرحلة الثانية ، مرحلة الزواج . واذا قدّر لها ان تحرم منها ، وتفترق عن رفيقاتها لتصبح زوجاً وامّاً ، ثقلت عليها مهام الزوج والأم وقصرت عن القيام بما تتطلبه هذه المهام ، فيتنغّص عيشها وعيش زوجها وعائلتها .

ومن الاضرار الاجتماعية ، ما يتأتى عن تغيير محيط الفتاة بعد زواجها . فمحيطها بعد الزواج هو غيره وهي فتاة ، اذ تصبح ، عندئذ ، ربة بيت ، عليها ان تستقبل زائريها وزائري زوجها ، وعليها ان تعنى بموجبات البيت كغيرها من الزوجات . وهذه امورٌ تستوجب كفاءة ودهاء ومقدرة ، صفات لم تكتسبها هي بعد . ان الزوجة الفتية اضعف حتماً تجاه التجارب من الزوجة البالغة . ان الثانية اعرف بمواجهة الظروف والاحوال ، وادرى بكيفية اتقاء الشرور المعرضة لها في كل يوم من ايامها . انها لا تؤخذ بالاوهام الخدّاعة وبالمجاملات الكاذبة ، وهي تمسك ناصية مركزها بيد قوية ، وتحكم نفسها ، كما تحكم بيتها ، حكماً سديداً ثابتاً .

التناسب بين عمري الزوجين

الزوجان شريكان متعاقدان على مدى الحياة ، لا سيما في الطوائف التي تحرم الطلاق . ولذلك يتوجب قيام هذه الشركة على اسسٍ متينة من حيث التناسب في السن ، والذوق ، والاخلاق . فاذا وجد تباين بين المتعاقدين ، كان ذلك سبباً لعدم سير الشركة سيراً موفقاً . ومما لا شك فيه ان تناسب عمري الزوجين هو الاساس الاول . فتناسب الاذواق والمشارب اقرب منالاً في زوجين متقاربين

سناً منه في زوجين تبعدهما السنون الكثيرة عن بعضهما . ولذلك لا يجوز ان تزوج ابنة عمرها عشرون الى كهل ناهز او جاوز الخمسين ، ولا ابنة ثلاثين الى شاب ابن عشرين . فمهما كان الارتباط بينهما وثيقاً ومحكماً عند العقد ، لا بد من ان تضعف تلك الروابط عندما ينتهي دور التعلق العاطفي والمحبة الجنسية ، وهذا الدور لا يدوم طويلاً بين الزوجين .

وتجدر الملاحظة ان نموّ الفتاة وتطورها اسرع نسبياً من نموّ الفتى وتطوره . فالابنة في صغرها تفوز على رفيقها الفتى اذا تساوى عمراهما . هي في سن الخامسة عشرة اكثر منه ادراكاً وابعد نظراً ، واكثر روية وحكمة . ولكن تجدر الملاحظة ايضاً ان الابنة اذا كانت سبّاقة للوصول الى الدرجة الاكتمالية ، فانها ايضاً سبّاقة الى التدحرج صوب المرحلة الانحطاطية ، اللهمّ فيما يختص بالخصائص الجنسية . فالمرأة متى وصلت الى سن الخمسين تفقد قواها الجنسية الى حدٍّ بعيد ، فيتوقف الطمث وتضمر اعضاؤها الجنسية ، ولا تعود قابلة للحبل ولا للتوليد ، بينما الرجل قد يصل الى الكهولة المتقدمة ، واحياناً الى الشيخوخة ، وهو يمتلك من القوى ما يمكنه من التلقيح والتوليد . فعلى ضوء هذه الحقيقة يجب ان ينظر الى التناسب

في عمري الزوجين .

لا توجد قاعدة عامة معترف بها من ذوي الاختصاص . وانما هناك اعتبارات عديدة يحسن الاخذ بها . منها واحدة اذكرها لاعتقادي بمطابقتها للملاحظات التي ذكرتها اعلاه . اما هذه القاعدة ، فاقسمها الى قسمين : قسمٌ يشمل الحوادث التي يكون فيها الزوج دون الاربعين ، وقسم يشمل الحوادث التي يكون فيها فوق الاربعين الى الستين . اما في الاعمار التي تفوق هذا الحد ، فالزواج نادر . والنادر لا يقاس عليه .

ففي القسم الاول يحسن ان يكون عمر العروس مما يزيد عن نصف عمر العريس بسبع سنوات ، اي ان شاباً عمره ثلاثون يتزوج ابنة عمرها اثنان وعشرون ، ومن كان عمره اربعين يتزوج بمن عمرها سبعة وعشرون .

اما في القسم الثاني من القاعدة ، فيجب ان يزداد العدد الاضافي عن نصف عمر الزوج من سبعة الى عشرة ، بحيث ان زوجاً عمره خمسون مثلاً يتزوج ابنة عمرها خمسة وثلاثون ، وابن الستين يتزوج ابنة اربعين .

هذه هي القاعدة الفضلى لمقاربة النسبة بين الزوجين من

حيث العمر ، ومن حيث القوى الطبيعيـة والجنسية بـين الزوجين ، هذا اذا تساوت صحتاهما وطريقة معيشتهما وبيئتهما. اما في حالات الشذوذ والافراط في المعيشة وانحطاط قوى الزوج او الزوجة ، فليس هناك قاعدة تصلح للتمشي عليها. فشبان وشابات ، شذوذاً يعيشون ، شذوذاً ايضاً يتزوجون ، وشذوذاً ايضاً وايضاً يموتون .

كل ابنة مصيرها للزواج

قد تشذ القاعدة . وما شذّ عنها فهو خارجٌ عن التطور الطبيعي . ان الابنة لم تخلق لتعيش فتاة وتموت كذلك . انما خلقت لتعيش قسماً من حياتها فتاة ، ثم زوجـة ، ثم امّاً . هذا هو دور المرأة ، وهي مغبونة اذا لم يقدر لها الاّ ان تمثل القسم الاول . قـد يكون التناسل هو الغاية الاساسية من الزواج ، ولكنه ليس بالغاية الوحيـدة الفيزيولوجية . والفتاة التي يحكم عليها القدر بعدم التناسل ، اما لعجزٍ صحّي ؛ او لسوء طالع ينزل بها ، ان هـذه الفتاة لم تحرمها الطبيعة من نفسية المرأة ، ولم تنكر عليها انوثتها ، ولم تجردها من عاطفتها وما تنزع اليه من عوامل تتأجّج في صدرها كما تتأجّج في صدور بنات جنسها . هي مثلهن في تكوينها ، مثلهن في طبيعتها ، مثلهنّ فيما تتطلب

انوثتها . هي تتضرر من حرمانها من الزواج كل حياتها ، والضرر لا يقتصر على جهازها النسائي وحسب ، بل يكتسح جسمها على العموم ، وبنوع خاص جهازها العصبي ، لا سيما بعد ان تجتاز الفتاة سن الخامسة والثلاثين وسن الاربعين .

ان الزواج ضرورة من ضرورات الحياة للمرأة . والمجتمع مجبرٌ على اجابة الطبيعة الى تطلّبها ، فيحلّ عقدة تزيد في تعقيدها هذه الايام ، اذ قلّ الزواج واخذ مركز الفتاة يتحرّج يوماً بعد يوم ، بعكس مركز الشاب ، لان الشاب في الشرق « فرفور ذنبه مغفور » .

والابنة التي لم تساعدها الظروف ، او بالاحرى قست عليها الظروف ، فلم تتزوج ، أيجوز ان يحكم عليها بالقتل الجنسي ؟ وهل تخضع قواها الطبيعية الكامنة للعوامل الاجتماعية القاسية ؟ وماذا يحدث متى ثارت هذه القوى التي لا تتعرف الى احكام هذه العوامل ؟ ان طبيعة الفتاة اذا عاكستها اعتبارات خارجية ، لا تلبث ان تصبح سبباً من اسباب الاختلال الجسدي والعقلي والروحي فتبلى بامراض مختلفة ولا سيما الامراض العقلية والعصبية .

أتريد ايها القارىء ان تفحص الامور بنفسك ؟ ان جولة في المنتديات الاجتماعية تظهر لك صدق ما اقول .

اذا رأيت في المجتمعات عانساً ، فكثيراً ما تلاحظ فيها نوعاً من الشذوذ . هي كثيرة الاهتمام بنفسها ، تخاف ان ينتقدها الناس ، قلقة ، حذرة ، حسود ، سريعة التأثر والغضب ، صعبة المراس . هي دائماً شاكية ، قلّما ترضى عن حالها واحوالها ، عن محيطها وبيئتها . هي ليست كغيرها من بنات جنسها اللواتي عرفن الحياة الزوجية ولم يحرمن من الفضائل الجنسية .

واذا ما سألت : اين المعلمات ومربيات الشبيبة ، والعوانس الشهيرات في العالم ، اين الراهبات والزاهدات ؟ لاجبتك : ان جميع اولئك لا يؤلفنَ إلا جزءاً واحداً في المئة من المجموع النسائي ، وعدا ان لاولئك من رسالتهن الثقافية او الدينية لاهياً ورادعاً ، فان حياتهنّ ، من الوجهة الطبيعية ، هي ابداً عراك دائم بين الصحة والمرض ، والضمائر والتجارب .

واذا زار القارىء مستشفيات المجانين ، وبحث عن ساكناته من النساء ، وجد ان عدم الزواج والاحجام الجنسي ، هما اكبر الاسباب لوجود اولئك التاعسات هناك . فكم من عانس اصيبت بالامراض العصبية ، كالهستيريا ، والنوراستينيا ، والملانغوليا ، وكم منهن حاولن الانتحار بعد

اليأس والعذاب .

فهل يجوز ان تظل العانس عرضة لهذه الامراض والبلايا لان الظروف لم تهيء لها الزواج ، وقد اصبح في ايامنا هذه صعب المنال ؟ أليس من الواجب ان تعمل الهيئات الاجتماعية لتجد حلاً لهذا المشكل محافظة على سلامة الفتاة ، وبالتالي على سلامة الامة ؟ أيفترض في الفتاة ان تكون ضحية شرائع وضعتها الهيئات الدينية والمذهبية والمدنية في العصور السالفة ، لتحافظ بواسطتها على قوانين ربطوها بالاديان وبالشرف وبالاخلاق ؟ ألا يوجد حل مقبول بين هذا التقييد القاتل وبين الطفرة الجامحة ؟

ان الحرية الجنسية التي حلّلها المجتمع للرجل وحرّمها على المرأة ، هي التي اوجدت هذا الاختلال في النظام الاجتماعي ، واقفرت سوق الزواج .

ان المجتمع مسؤول عن حياة الفتاة . ان هي إلا ركن من اركانه . واليوم وزواج الفتاة لم يعد من السهولة بمكان ، فعلى المجتمع ان يعمل في سبيل مستقبلها وصيانة نفسيتها ، فيفتح لها باب الحياة . ومتى تهذبت الفتاة ، وبلغت ثقافتها المستوى الراقي ، وسنها حدّ العنس ، فليس من العار ان تأخذ قسطها من المعيشة الذاتية التي فرضتها الطبيعة ولم

تقضِ عليها بحرمانها منهـا . ولا خوف على الاخـلاق من الفساد ، ولا عـلى الشرف من الدنس ، متى اعطيت الفتاة رأس مالٍ من العلم والتهذيب والثقافـة ، والحقوق ، ومتى عرفت ما عليهـا من الواجب تجاه المجتمع وتجـاه الجنس . ولكن الخوف ، كل الخوف ، من الدنس ومن الفساد ، اذا اهمل امر الفتاة ، وتُركت في حالتها الحاضرة ، زواجها صعب ، والشرائع تكبلها بقيود خانقة ، والضغط اكثر ما يكون سبب الانفجار .

نحن والطبيعة في عراك مستمر ، بما نسنّه من الشرائع. تقول الطبيعـة للمرأة : « الدنيا كلهـا أم ، انت الدنيـا ، ويكفيك فخراً انك أم . »

والنواميس المتعددة ، عـلى تباينها واختلافاتهـا ، تقدس الامومة وتبارك الأم .

هاك ما يقوله جبران خليل جبران في كتابه « يسوع ابن الانسان » :

« ستبقى المرأة ابداً رحماً ومهداً . وقط لن تكون رمساً . »

ونحن اصحاب الشرائع الانسانية ، والمتمسكين بالتقاليد

الاجتماعية ، والخاضعين للتعاليم البشرية ، نريد ان نحرم المرأة من نعمتها ، وننكر عليها مصدر بركتها . نريد ان نجعل منها رمساً ، وهي انما وجدت لتكون رحماً ومهداً . نريد ان نقتص منها اذا ما جار عليها زمانها ، وشاء سوء الطالع ان يبقيها وحيدة شريدة .

وما هي جريمتها اذا هي طمحت الى الامومة ، والطبيعة ، والنواميس ، والاديان ، كلها تهيء لها هذه الطريق ، وتحسنها في عينيها ، وتريها ذاتها ضعيفة ، ذليلة ، اذا لم تقطعها . أتلومها اذا هي رأت في الامومة هدفاً مباركاً لحياتها ؟ هي غريزة في طبيعتها ، ولا لذة من لذاذات الحياة تقوم مقامها. ومتى قيل ان المرأة كلها قلب ، وانها تقدس الحبّ ، وتعيش للحب ، فما حبها إلا سبيلاً لبلوغها الى ما تصبو اليه ، ومن عشرات الاجيال قال زرادشت : « ما الرجل إلا وسيلة للمرأة ، اما الغاية فهي الولد . »

لا نكران ان افضل الطرق للتناسل هو طريق الزواج. ولكن متى تعذّر هذا ، وبلغت الابنة عمراً متقدماً يفوق الخمسة والثلاثين مثلاً ، ولم تعد تأمل في الزواج ، فأي خطيئة ترتكبها تجاه المجتمع ، وتجاه الناس ، اذا هي تمنّت ان تكون امّاً ؟

وهذه الفتاة الام ، أيجوز للشرع المدني ان ينظر اليها غير نظره الى غيرها من الامهات ؟ وهل يجوز ان يعتبر وليدها ابن سفاح ، لا حقوق له على امه ، ولا واجبات عليه لها ، لا يرثها ، ولا هو مجبر على اعالتها ؟ وهل يحق للكنيسة وللاديان المختلفة ان تعتبر هذه الام زانية ، وهل يجوز للمجتمع ان ينظر اليها منبوذة مرذولة ؟

ويتغنى المتشرعون والمتفقهون الذين يقيمون من انفسهم حماة للفضيلة ، فيقولون : هذا ولد غير شرعي ، وليتهم يرجعون الى العلم والمنطق فيما يحكمون . ان الوليد لا يكون خارجاً عن الشرع الا اذا كانت الولادة غير شرعية . وبماذا تتصف الولادة غير الشرعية بنظرهم ؟ ان جميع الولادات تبتدىء بالمخاض ، وتتميز بالاوجاع والاخطار ، وتنتهي بولادة الوليد ، بعد ان تكون امّه قاست الامرّين ، واحتملت من العذاب ما يزح تحته اشد الرجال بأساً وبطشاً . ولا فرق بين المولدة التي تتمخض وهي بين اهلها وذويها ومحبيها ، يعطف عليها زوجها ويتألم لآلامها مرافقوها ، ويحنو عليها كل الذين يعرفون باوجاعها ، وبين مولدة تتعذب ولا تشعر بعطف الزوج ، ولا بحنو الوالدين والانسباء . بلى ، هناك فرق بين الاثنتين ، ولكنه لمصلحة الثانية ، اذ ان هذه

تتحمل عبء المسؤولية وحدها ، وتقوم بواجباتها وتضحياتها تجاه وليدها ، دون ان تلقى معونة من احد . أيضيع اذاً فضل هذه الأم على الجنس البشري لمجرّد كونها امّاً على طريقة لا يباركها الشرع الانساني ولا يعترف بها المتفقهون؟ أيعيش وليدها ذليلاً ساقطاً لمجرّد تكوينه في رحم تلك الأم؟

لا . ان الطبيعة لا تعرف الشرائع . والمولود ابن الطبيعة ، لا ابن الشرع . فاذا كان الفقهاء والمتشرعون يقولون بزواج غير شرعي ، فليس لهم ان يسمّوا ولداً غير شرعي . الاولاد كلهم شرعيون ، بالرغم من فلسفة المتفلسفين وثرثرة المتشدقين .

ان قسوة الهيئات الاجتماعية والدينية وظلم الشرع المدني، هو ما يدفع بهؤلاء الفتيات الى ارتكاب الموبقات واقتراف الجرائم ، باسقاط اجنّتهنّ او قتلهم ، او تركهم على قارعة الطريق ، يفعلن ذلك غير مباليات باخطار تحـــدق بهن ، ليسترن عاراً يعيّرهن به الناس ، ولينجون من قصاصٍ او حرم تنزله بهن شرعات يسنها المتفقهون .

أليس من الافضل ان تسنّ الدولة شرائع تحمي الفتيات ، وتحافظ على ثمرة حملهنّ ، وتحمل هي ، أي الدولة ، اعباء تربية اولئك الاطفال متى تعذر ذلك على امهاتهم ؟

قد تبدو هذه النظرية ، للوهلة الاولى ، ثورة اجتماعية ، لا سيما في شرق لم يزل كثير التحفظ ، شديد التمسك بالتقاليد بكل ما يتعلق بالمرأة . ولكن هب انها ثورة ، أليست هي افضل من ترك الحالة على ما هي عليه ؟

لا تفهمن من كلامي ايها القارىء اني من دعاة الاباحية . اعوذ بالله . فانا اغار على الفضيلة اكثر بكثير من الذين يدّعونها . ولكني اواجه حقيقة تبدو ماثلة امام عيني ، واولئك المتفلسفون يضعون غشاءً على عيونهم ، فلا يرونها ، او يتجاهلونها ، وهم يعتقدون انهم يسترونها عن عيون الناس .

حبذا لو تألبت الهيئات الاجتماعية لدرس هذه المشكلة التي تتعقد يوماً بعد يوم ، وسنة إثر سنة . انها حرية بالبحث للوصول الى حلٍّ ترضى عنه الطبيعة ويتطلبه المجتمع ، ويكون وسيلة من وسائل العمران وسلامة الجنس .

لا بد من التطور الاجتماعي . ولا شك ان هذا التطور سيحقق ارادة الطبيعة ورغباتها ، والطبيعة لا تُغلب .

الواجبات المتبادلة بين الزوجين وفلسفة الزواج

لكل من الزوجين واجبات على رفيقه . الزوج يتطلب

من زوجته ، المحبة والاخلاص ، والاهتمام باموره ومنافعه الشخصية والبيتية ، واجابة مطلب حبه وعاطفته . والزوجة تتطلب منه الاعجاب بها وبخصائلها وجمالها ، وتقدير مزاياها ومحبتها ، ومقابلة تعلقهـــا به بمثله . هي ايضاً عندها من العواطف ما عنده ، بل هي تفوقه عطفاً وولاءً ، فـلا يحسن اذاً ان يتناسى هو ما فيها من المميزات ، كما انه لا يجوز له اعتبار الزوجة مطية لارضائه واشباع ميوله وملذاته. فالواجب يقضي بمبادلتها حبّاً بحب ، وولاءً بولاء ، وتضحية بتضحيـة .

الزوجان في عرف الطبيعة حبيبان . والحب له اطواره ومظاهره ، منها ما يقرها العقل ، ومنها ما هي اقرب الى الخفّة والجهل . كل هذه الامور لازمة ، حتى ما خرج منها احياناً عن حدّ التعقّل . اما المظاهرات الجنونية والاساليب الحبيّة المتطرفة ، فان كانت مستنكرة في المجتمعات ، غير انها مبرّرة بين الزوجين في وحدتها . فحسناً ان يذكر المرء ، ولو في دخيـلة حياته الزوجية ، انـه هو الحيوان الناطق ، وحيوانية الانسانية هي رفيقة لشهوانيته . فليس ثمّت من مجـال للاحتباس وراء رصانـة متعمدة طالمـا كانت سبباً لقلة الاكتراث ، ثم للتنافر فالاختلاف . امـا هذه القوة الجبّارة التي تأخـذ بالقلوب ، والتي تسيطر عـلى

حياة الانسان ومقدراته ، والتي يسميها الناس حبّا ، فهي مهما قيل عنها ، ومهما ذهب الخياليون بوصفها وبترفعها عن الدنيويات وباحلالها محلّ الارواح الطائرة ورفعها الى المستوى الاعلى ، فهي وليدة الشهوانية التي بدونها لا تبقى قوة . ان الانسان مهما تقرب الى الآلهة في شعوره وعواطفه ، فلا بدّ من ان يرجع الى حيوانيته في طبيعته وحبّه ، ولولا ذلك لما حفظ النسل ولا دام التناسل .

زواج الحب . زواج المصلحة . زواج العائلة

كثيرون هم الذين ينيطون امر الزواج ومصيره بالقلب . وبرأيي ان اولئك لعلى خطأ مبين . فان كان القلب هو الدليل الى التحابب ، فانما يجب ان يكون العقل الدليل الى التزاوج .

ان القلب لا يتبع دائماً في هواه المعقول . انه لدليلٌ قاصر . وكثيراً ما يكون سكرانَ طائشاً .

ان الزواج الذي يجيء وليد العواطف وتسمّم القلب بسمّ الحب الجنوني ، لا بد من تصدّعه عندما تزول السحابة وتنقشع الغيوم عن مدارك الزوجين . فاذا هدأت ثورة الحب ، ولا بد من ان تهدأ في يوم من الايام ، انقلب

الزواج من صفاء الى شقاء ان لم يكن مؤسساً على اسسٍ ثابتة من الحكمة والرصانة والتعقل .

ان الحب وحده هو اخدع دليل الى الزواج . ولا شيء يقتل الحب الطائش كما يقتله الزواج .

ان الزواج يتطلب اموراً تتعدى الى ابعد مما يستطيع الحب ان يأتي به . فماذا يحل بالمتزاوجين وبالعائلة عندما تخمد الثورة النفسية لتحتل الحكمة والعقل محلّها ؟ وما هو مصير الزوجين واولادهما متى تبدّدت الاحلام وانقشعت غيوم الحب والهيام بعد سكون العاصفة ؟

واسوأ من هذا ، الزواج المادّي ، وهو المؤسس على مجرد المنفعة المادّية ، وهو ما يعبّر عنه بالفرنسية Mariage d'intérêt . هو تجارة اكثر منه زواجاً . وهو تجارة خاسرة في اكثر الاحيان .

اما النوع الثالث والافضل فهو زواج « العاقلة » Mariage de raison . هو الذي يوجّه اليه العقل ، وتعززه الحكمة ، وينزل من القلب منزلاً محفوفاً بالرغد والهناء ، فيستهويه ، ويجعل من حياة العائلة نعيماً ارضياً ، ويفتح لها ابواب السعادة والراحة .

والفتاة الحكيمة هي التي تختار لها زوجاً من تجد في شبابه صحة وقوة ، وفي اخلاقه زينة ، وفي عمله جداً ونشاطاً ، وفي اخلاصه ووفائه كنزاً لا تساويه اموال طائلة ولا جواهر مغرية .

الصحة في اختيار الزوج هي شرط اساسي . ولو اوجبت كل فتاة على طالب يدها ان يكون مشهوداً له بحسن الصحة من خبير معروف وموثوق به ، لاصطلح النسل وخفت الامراض الوراثية والاجتماعية التي تهدّد حياة العائلة وكيان الامم .

يقترب شاب ، غني المورد ، جميل الطلعة ، انيق الزيّ ، لطيف المعشر ، من فتاة يطلب اليها مشاركته الحياة . كل ما هو ظاهر فيه يجعله كبيراً في عينيها . ولكن كثيراً وكثيراً جداً ، ما يكون فتاها حاملاً في احشائه مرضاً خبيثاً لا يلبث ان تظهر خوافيه بعد الزواج . وان بقيت كامنة فيه ، تظهر في زوجه او في اولاده . جريمة يقترفها الشاب ، فيشترك في تحمّل عواقبها ابنة سليمة وبنون ابرياء. ولو عدلت الطبيعة لفتكت بالزوج المسبّب قبل ان يقدم على جريمته .

من حقك ايتها الفتاة ان تحبّي . ومن حقك ان تتزوجي . فان جاز لك التساهل مع قلبك في الحب ،

فاحذري التساهل معه في الزواج . انك شجرة في بستان الحياة ، فاحرصي كي تجيء ثمرتك شهية لذيذة طيبة .

الزوجة الجديدة

بين ليلة وضحاها ، تنتقل الفتاة من حالتها الفردية الذاتية الى الحالة الزوجية ، تودّع حياة حرة لم تكن تشعر فيها بمسؤولية ذات بال ، وتستقبل حياة جديدة ، حملها ليس بالخفيف ، والمسؤولية التي تلقيها على عاتقها ليست هيّنة . في الحياتين حلاوة ، وفي كلتيهما مرارة . عذوبة في الاولى ، وعذوبة في الثانية . عذاب في هذه ، وعذاب في تلك . اما درجة العذوبة والعذاب ، فتتفاوت بتفاوت الظروف والاحوال . ولكن مهما قيل ، ويقال ، فان كان الانتقال من نعمة الى نقمة ، او من نقمة الى نعمة ، فقد حدث التغيير ، واوجب على الابنة الاستعداد لأمرها والمصير .

كانت الفتاة ، قبل زواجها ، تهتم بظاهرها واناقتها ، بحفظ جمالها وبهاء طلعتها ، بنعومة وجهها ، ورشاقة قدّها ، وبالسحر يشع من عينيها ، وبكل ما يزيدها رونقاً وجمالاً . اما الآن ، وقد اصبحت امرأة ، ربّة بيت جديد ، فلم تعد قبلتها فقط ما تكتسبه من الرونق والجمال ، اذاً وجب

عليها ان تولي شطراً من اهتمامها الى ما وراء ذلك من الحسن الكامن ، الى ما قد اعدت نفسها لاقتباله ، الا وهو الزواج ، والارتباط مع زوجها ، وما يقتضيه ذلك من الاستعداد للتناسل .

ان اهتمامها الذي كان كله ، او معظمه ، مصوباً الى التحسن والتجمل الخارجي ، يجب ان يبذل في وجهة ثانية ، في ناحية يغطيها ثوب من الحشمة ، ويحجبها حجاب من العفاف ، ولكنها تستوجب العناية العظمى من المرأة ، اذ هي المحور الذي تدور حوله حياتها النسائية . ورب اهمال في اداء هذه الواجبات اورثها امراضاً وحالات تنغص عليها عيشها وتنتزع من حياتها حلوها وطيبها ، فالمرأة العاقلة هي التي تدرس هذه الامور ، وتستفحص عنها ، وتعمل بموجبها ، انها اهم بكثير من التعرف الى وسائط التبرج والتجمل بالمساحيق والصبغات المتعددة .

على الابنة ، لدى زواجها ، ان تعرف ماهية التغيير الذي سيطرأ عليها ، وان كانت تجهل ذلك ، فعليها باستشارة من يدلها اليه ، ومن يرشدها الى السير في طريق تتبعها لحفظ صحتها ، وقوتها ، ومصدر جمالها ، وليس من العيب في شيء ان تخوض الابنة هذا البحث . اما الاحجام عنه استحياء

فهو خجل مخلوط بالجهل ، وحشمة منها ، لا يقرها عليهـــا العقل ، وعفة لا تحتاج اليها الفتاة التي لم يلطخ آدابها خلل او وصمة .

الزواج والقرابة

في العصور الاولى كان الزواج بين الاهلين الادنين مباحاً عرفاً وقانوناً ، فلم يتورّع الرجل ان يتزوج من اختـه ، وعمته ، وخالته ، حتى من ابنته .

وكان البشر في اختـلاطهم الجنسي حيوانيين ، لا حرمة عندهم للصلب ولا للنسب .

ابراهيم تزوج سارة ، وكانت قبـــل الزواج اختـه ، فاصبحت بعد ذلك اخته وامرأته .

وتقول لنا التوراة ان سارة كانت امرأة جميلة .

وتاجر ابراهيم بجمالها ، واحتمى بها من غضب « فرعون » واستبداد « ابيمالك » فقال لها : « قولي انك اختـي ليكون لي خير بسببك . » .

وصار لابراهيم بسببها غنى واسع وخيرات كثيرة .

ثم استرجعها واستولدها اسحق الذي خرج منـــه نسلٌ

مبارك وشعب عظيم ، كان ولا يزال قطب الحركة ولولب العمل بين مختلف الامم والشعوب .

وعمل لوط نسلاً من ابنتيه ، لانهما لم تلقيا رجالاً .

وقد تعددت في « الشعب المختار » هـذه العلاقات حتى اتى موسى فحرّمها ولعن الذين يعملون بها .

وكان موسى في شريعته انسانياً ، فقضى على حيوانية شعبه .

« لا يقـترب انسان الى قريب جسده ليكشف العورة . لا تكشف عورة ابيك ، ولا عورة امك ، ولا عورة امرأة ابيك ، ولا عورة اختك بنت ابيك ، ولا عورة ابنة ابنك او ابنة بنتك ، ولا عورة اخت ابيـك او اخت امك . عورة اخي ابيك لا تكشف ، الى امرأته لا تقترب ، لا تكشف عورة كنتك ، ولا عورة امرأة اخيك ، ولا عورة امرأة وابنتها ، ولا ابنة ابنها ، ولا ابنة بنتهـا . » (سفر اللاويين) .

ومشت على هذه الشريعة الديانة المسيحيـة ، اذ رأت فيها ناموساً مقبـولاً يجمع بين حيوانيـة الطبيعة وانسانية المجتمع .

وانزلها نبي الاسلام في صلب شريعته آية مقدسة : « حرمت

عليكم امهاتكم ، وبناتكم ، واخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الاخ ، وبنات الاخت ، وامهاتكم اللاتي ارضعنكم ، واخواتكم من الرضاعة ، وامهات نسائكم ، وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم ، وان تجمعوا بين الاختين ، الا ما قد سلف . ان الله كان غفوراً رحيماً . »

وغالت في تشريعهـــا بعض الفِرَق المسيحية ، فحرمت الزواج بين الاقرباء الى الدرجة الخامسة ، وكانت مغالاتهـا مبنية على اسسٍ صحية واجتماعية . غير ان الناس في العصور السالفـة لم تكن تهمهم امور الصحة والاجـتماع ، فقال لهم المتشرعون : هذه قوانين سنتها الكنيسة ، ومن شرد عنها عوقب بالحرم وبنار جهنم .

وخضع القوم لها ، هرباً من حرم الكنيسة وما يرافقه من الذلّ والعار ، وخوفاً من عذاب جهنم ومن لهيب النار .

حبذا هـذه الحيلة التشريعية من رجال الكنيسة . لقـد كانوا في ذلك حكماء عاقلين .

وقلّ هـذا الشذوذ في العصور الحديثة ، وصار الناس

ينعتون من يتزوج باخته او بابنته ، حيواناً او بهيمة . ولا يخلو المجتمع من البهيميين .

« بيرون » شاعر الانكليز الاكبر ، احب اخته ، فاستولدها ، ولم يطل حبه لزوجته او لواحدة من خليلاته الكثيرات كما طال حبه لها . ودامت علاقاته الجنسية معها سنين عديدة . ولطالما استلهم من هذا الحب روائع اشعاره .

غير ان التطور الانساني كفيل بالقضاء على هذا الشذوذ الجنسي الذي يمجه الذوق وتستهجنه الهيئات الاجتماعية الحاضرة .

ان الزواج واسطة كبرى لتقارب الشعوب واختلاط الامم . وامتزاج المدنيات عن طريق التزاوج هو الطريقة المثلى لازالة التعصب من ابناء الملل المختلفة وأتباع المذاهب المتعددة . ومتى رأيت امة او طائفة ، او عائلة ، لا تتزاوج مع غيرها من الامم والطوائف والعائلات ، فاعلم ان هناك تنمو بذرة من بذور التعصب والانانية .

لو اختلط اليهود مع بقية الشعوب ، وتزاوجوا بغيرهم منها ، لما كان بنو اسرائيل اليوم في اقطار المعمور كافة

يُنظر اليهم بعين الحذر والكره . ولو تخلت الاديان عن تعاليمها القاضية بمنع ابنائها وبناتها من الزواج بمن كان على غير دينهم ، لماتت العصبية الدينية والمذهبية ، بلية العالم اجمع ، وبلية الشرق على الاخص .

فعبثاً يحاول المصلحون ازالة التعصب من هذه الاقطار الشرقية . فلا التعليم يزيله ، ولا الثقافة تمحو شره، ولا الشرائع المسنونة تعمل على درء اخطاره .

ان التزاوج بين مختلف الامم والطوائف ، والمصاهرة الناتجة عنه ، هما دون غيرهما ، افضل الطرق لنجاة الشرق من ويلات التعصب .

خلاصكم بيدكم يا ابناء الشرق . علتكم في تعصبكم الديني . ان الغريب عالم بهذه العلّة ، وهو يعمل على استثمارها . فاما ان ترضوا عن هذا الاستثمار ، ثم الاستعمار ، واما ان تهبّوا للتخلص من نيره . ولا سبيل الى ذلك الا بالتقرّب بعضكم الى بعض ، مللاً وطوائف ، عن طريق التزاوج المتبادل. أيمنعكم رؤساءكم الدينيون ؟ انبذوهم . أتعترضكم دياناتكم وشرائعها ؟ ضعوها جانباً . واعلموا ان الدين اذا لم يكن منه الخير ، كل الخير ، فلا فائدة منه . استبقوا من الاديان تعاليمها الصالحة التي تأمر بالمعروف والمحبة وتنهى عن المنكر

واتركوا منها الشرائع التي تؤول الى الانقسام والتشتت . انكم اذا بقيتم متمسكين بعوامل التفسخ واوامر التفرقة ، تضعون في ايدي اعدائكم سلاحاً يحاربونكم به ، فتبقون مستعبَدين .

لا خلاص للشرق الا بنبذ التعصب. ولا ينبذ التعصب الا متى تدخل العنصر النسائي في جهاز الخلاص ، ولا سبيل الى ذلك الا بالتزاوج بين مختلف الطوائف والملل . فهل يصحو الشرق ويعمل في سبيل خلاصه ؟

والخطر الثاني من تزاوج ذوي القربى هو ما يتناول سلامة النسل والذرّية .

ان التزاوج بين الانسباء يحافظ على صفات الجدود ، حسنة كانت ام سيئة . فالنطفة المنوية التي يقذفها الرجل ، والبويضة التي تفرزها المرأة ، هما مادتان حيويتان ، كل منهما جزء من كلّ هو الجسم الذي ينفصل عنه . ومهما صغر هذا الجزء فهو يحتفظ بشيء من مميزات الكل . فعندما تتحد هاتان المادتان على اثر الجماع ، تصبحان وحدة غير مجزأة . وهذه الوحدة هي الخلية الاولى التي تصبح فيما بعد جنيناً ، فاذا اتسمت كل من هاتين المادتين بسمات الجسم الذي تتفرع

منه ، ظهرت في الخلية المتكونة من اتحادهما علامات بارزة في الشخصين الاصليين .

هي سنّة الوراثة . الابناء على ذمّة آبائهم واجدادهم . قد تقرب حيناً من الآباء الى الابنـاء ، وتبعد احياناً من الجدود الى الحفدة .

ومتى علمنـا انه لا بدّ من وجود بعض الصفات غـير المرغوبة ، حتى في افضل العائلات واكثرها سلامة ، تبيّن لنا كيف تنتقل هـذه بالتزاوج المستمر بين الاقرباء وتزداد رسوخاً من جيل الى جيـل في ذريتهم . وعلى هـذا نرى العائلات المحافظات على التزاوج العائلي وعدم الاختلاط مع غيرها عن طريق التناسل ، تبرز فيها صفات وعادات خاصة تعرف بهـا وتميزها عن سواها . واذا وجدت عائلة تتميز بصفـات وعادات حسنة من تمسّكها بالتزاوج العائلي ، فقـد يوجد عشرٌ عائلات تبرز فيها عادات وصفات غير صالحـة ، وامراض وعاهات وراثية .

وبالعكس اذا تزوج رجل من امرأة من غير عائلته او من غير قومه ، لحدث الامـتزاج بين الصفات الموروثة من السلالتين . وباستمرار هذا النوع من التزاوج يحصل التغير والتحول .

هكذا تتغير صفات الاقوام ، وعاداتهم ، واخلاقهم ، وصحة ابنائهم .

ان تحسين النسل يأتي عن طريق اختيار الزوجين . هذا هو الاختيار النوعي الموّجه منقولاً عن شريعة « داروين » في الاختيار النوعي الطبيعي ، ولنا من حكمة المزارعين برهان على صحة هذه القاعدة .

واذا قلنا ان الزواج بين الانسباء غير مرغوب فيه فهذا لا يعني ان الزواج بين عنصرٍ صحيح وعنصر فاسد افضل منه .

يجب اختيار العنصرين ليتزوج الصحيح من الصحيح . اما الفاسد فسلّمه للنظام الهتلري ليقضي عليه بعدم التناسل . فخير للبشرية ان ينقص العدد ويحسن النوع من ان يسوء النوع وتكثر الشعوب ، فتزداد بلايا الناس ، ومطامعهم ، ومزاحماتهم ، وحروبهم .

الزواج عهد وعقد

اراد احدهم يوماً ان يتزوج . واذ دنا يوم العرس ، ورغب في دعوة اهله واصدقائه ، وزع عليهم بطاقة مكتوباً عليها : « يوم الاحد بتاريخ كذا ، فلان وفلانة يبنيان

عشاً للسعادة . »

اعجبتني هذه العبارة ، اذ دلّت على وجهة نظر العروسين في الزواج ، فهي تطابق الفكرة التي يقوم عليها الزواج ويصبو اليها المتزوجون .

ان السعادة هي غاية الانسان من الحياة . انها الغاية من الوجود . والطبيعة لم توجد الانسان الا ليكون سعيداً شأن كل ذي حياة على الارض . وما التعاسة الا من صنيع البشر يأتونها في ساعات شرهم ، فتحرقهم نارها وهم يتألمون.

العصفور دائماً يغرّد ، وهو سعيد . والحيوان في مرح دائم ، بالرغم من اتعاب يثقله بها الانسان . فهل يكون العقل الذي يتميز به الانسان عن الحيوان سبباً لجلب التعاسة عليه ؟

لقد تميّز الانسان بالعقل لكي يفرق بين الحسن والقبيح ، بين الصالح والطالح ، بين النافع والضارّ ، فيختار الاصلح ، وهكذا يكون عقله واسطة خير له وللمجموع .

كيفما وُجد الانسان ، فقد وجد ليسعد ، لا فقط ليعيش ، فهو ينشد السعادة في جميع اعماله . هي قبلته في مسيره ، وهي الغاية التي يتطلع اليها دائماً . فاذا عمل عمل لاجلها ،

واذا تعلّم فلكي يصل بواسطة علمه اليها . واذا تزوج فلكي يبني عشاً للسعادة ، يأوي اليه ، ويستظله ، وترتاح نفسه في كنفه .

وما هي هذه السعادة ؟

هي الحصول على ما تشتهيه النفس ، وترتاح اليه ، فيشعر صاحبها بطمأنينة وغبطة .

قد يُظن ان السعادة تأتي عن طريق المال ، او عن طريق البنين . وقد يُعتقد انها رفيقة المجد والسؤدد . ولكن لا هذا ولا ذاك ، ولا ذلك ، مفتاح لها .

ان السعادة سرّ من اسرار الوجود ، لا تهتدي اليه المادة الا اذا اقترنت بعوامل روحية خفية تجعل منها واسطة يستعان بها لبلوغ الهدف المنشود . فلا المال يغني عن هذه العوامل ، ولا يستعاض عنها بشيء من خيرات الدنيا ونعمها. عوامل تشعر بها ولا تلمسها ، وتجعل لك الحياة ولا تقدر ان تصفها . هي دعائم السعادة . هنيئاً لمن يحصل عليها ، ويا لعمران البيت الذي يؤسس على حسناتها وفضائلها .

وهذه الرابطة المسمّاة زواجاً ، انما وجدت في الاصل لتكون وسيلة لسعادة الزوجين وسعادة عائلتها . ولو كان

تكاثر الجنس هو الغاية الوحيدة من الزواج ، لبقي هذا التكاثر في عالم الانسان شأنه في عالم الحيوان . تناسل بدون ارتباط ، وتزاوجٌ بدون عقود . اذاً فالزواج مفتاح من مفاتيح السعادة ، ومعبّد لطريقها . فاذا قصّر عن ذلك كان مجلبة للشقاء بدل الهناء . فأحرِ به عندئذ الا يكون ، وان كان الا يطول .

مهلًا ايها القارىء ، ورافقني في جولةٍ استطلاعية الى داخل البيوت ، لنقف على مكنونات الحياة فيها وعلى اسرار العائلات .

هذه عائلة تنعم بارغد العيش وأهنإه ، لا يعكر صفو حياتها معكّر . زوجان متضامنان ، متفاهمان ، متحابان ، يعملان لسعادة العائلة التي كفلا لها الحياة ، وتعهدا بان يجعلاها سعيدة فرحة . الاولاد حولهما يفرحون ويمرحون . الخير منبسط امامها ، ولا اعني بالخير كثرة المال ، بل هو لذّة العيش في جو من المحبة والطمأنينة ، تزينه حلاوة العمل ويرفرف عليه طيف من الرجاء والامل . عشّ من اعشاش السعادة . تبارك من هيأه ومن بناه ، ومن يسهر على دوامه .

وهذا بيتٌ ، مكتوب على بابه باحرفٍ سوداء : هنا

يسكن البؤس ، هنا تخيم التعاسة ، هنا بيت الشقاء . الابوان في عراك مستمر دائم . اذا جلسا الى الطعام فالخلاف يشاركهما الصحن ، واذا تحدثا فلا يلبث الحديث ان ينقلب الى خصام . واذا افترقا شعر كل منهما براحة وطمأنينة ، تدوم ما دام بعيداً عن رفيقه . حياة كلها بؤس ومرارة وشقاء . الاب يشقى ، والام تنوح ، والاولاد يتعذبون ويضرسون من حصرمٍ يأكله الآباء .

وهذه زوجة ترجع الى بيتها في المساء لتطعم اولادها مما كسبته من عملها الشاقّ في النهار . هي زوجة لرجل شرير، ما تزوج الا ليشبع شهوانيته الحيوانية ، فما لبث بعد بضع سنوات ان همدت شهوانيته الى امرأته ، فتحوّل الى غيرها يقضي ايامه ولياليه متمرغاً في اوحال الرذيلة . واذا عاد الى بيته ، فلكي يسوم امرأته واولاده العذاب اشكالاً والواناً ، ثم يتركهم بعد ان يختلس ما تكون خبأته الأم لتدفع به عن اولادها غائلة الجوع[1] . هي تتحمّل المذلة ، وترزح تحت احمال من الاثقال والويلات ، ولا تجرؤ ان تبث شكواها الى اولئك الذين يتحكمون بمقدرات الناس . انهم الاسياد لا يشعرون بمصائب الناس ، فهم يعدّون الضربات ولا يأكلونها . سياستهم في احكامهم على قاعدة « ماشي الحال .

واذا تمرمرت امام اهلها وذويها قالوا« : الستره يا بنيــة ، اكتمي امرك عن الناس ، خوفاً من العــار ، وسلمي الى القدر . » واولئك المساكين البسطاء يجهلون ان القدر وليد الضعف وحليف الذل والجهل .

وهذا رجلٌ رأيته مراراً يطوف عـلى اصحاب الحـــلّ والعقد من رجال الدين في بيئته ، المسيطرين على مقدّرات العائلات بقانون يطلق عليه اسم قانون الاحوال الشخصية ، وهو قانون اقل ما يقال فيه انه عثرة في سبيل تحرر المجتمع من قيود تمُت الى القرون الوسطى بصلة . وامر هذا الرجل لا يحتاج الى تفسير او تعليق . امرأتــه فاحشة ، فاسقة ، هجرت بيتها ، وزوجها ، وولديها ، والتحقت بخليلٍ عشقته مدة طويلة وهي في بيتها الزوجي ، ثم غادرته لتتزوج بخليلها على دينٍ غير دينها ، فاستولدها ثلاثة اولاد .

طرق الزوج المسكين باب المحاكم المدنية فقال له اسيادها: « انت للمحاكم الروحية . » التجأ الى رئيس طائفته ورجاه الطلاق من زوجته الزانية بعد ان تزوجت برجل آخر . فغضب سيده قائلًا : « اذهب ايها الجاهل الكافر ، فما جمعه الله لا يفرقه انسان . » رجع المسكين الى بيته يتعثّر باذيال الخيبة ، وكثرت عليه مصائبه ، فلم يقوَ جسمه على احتمالها .

حالفه مرضٌ منهكٌ قتّال ، لم يمهله إلا قليلاً ، فمات مورثاً ولديه عذابات نفسية تنخر في جسميهما النحيلين . وهنا بيت القصيد في هذه الحكاية الواقعية . فما ان علمت امرأته بوفاته حتى دبّ فيها طمع يغذيه فيها فحشها ، وقامت تطالب بحقها من ارثه ، وقد حكم لها به ، وانتزعته من اولادها لتصرفه على خليلها واولادها منه . حدث كل ذلك تطبيقاً للمادة الجانية : « ما جمعه الله لا يفرقه انسان . »

هذه صورة حقيقية من مشاهدات الحياة ، وهي ليست نادرة الوقوع . فماذا يقول اولئك الذين يرون في الزواج رابطة لا يجوز فكّها باية حالة من الحالات ؟ هل هم يخدمون الغاية التي وضع لاجلها الزواج ، ويصبو اليها المتزوجون ، ويسعد فيها الانسان والمجتمع ؟

قد يقولون ان الطلاق يقوّض اركان العائلة ، والعائلة دعامة المجتمع . فما قولهم بعائلة لا اثر للسعادة في بيتها ، حياتها كلها خصام ، ومعيشتها معدومة المحبة والسلام ، والبؤس والشقاء يحتلاّن محلّ الوفاق والوئام ؟ ما قولهم في اولادٍ يربون في ظلّ ابوين متباعدين متباغضين ، يعمل واحدهما على قهر الثاني ، ولا يتفق الاثنان إلا على دكّ اساس العائلة التي تعهداها ؟ وما هي حال اولئك الاولاد وهم يرون

ابويهم في خلاف دائم وعراك مستمر ؟

اهذه هي العائلة التي تريدون يا سادتي ان تحافظوا عليها وتجعلوا منها ركناً من اركان المدنية والمجتمع .

اليس الافضل ان تفسخ رابطة الزواج بين مثل هذين الزوجين ، فتخف التعاسة وتوفر عن الاولاد مشاهد ، غالباً ما تكون مخزية ، تقسع بين ابويهم ؟ اليس بذلك خدمة للكيان العائلي وللهيئة الاجتماعية ؟ قليلًا من العقل والتعقّل.

قلت ان الزواج عقد يجب ان تتولاه هيئة رسمية مسؤولة ، لا تسمح به إلا مستكملًا جميع شروطه الصحية والاجتماعية والاخلاقية ، ليكون عندئذ عاملًا من عوامل السعادة . اما اذا ظهر ان هذا العقد اصبح سبباً للبؤس والشقاء في البيت والعائلة ، فيجب فسخه كي لا تكون تعاسته بؤرة تفسد جوّ المجتمع .

ومتى قلنا ان الزواج عقد يجب ان تتولاه هيئة رسمية مسؤولة ، فالطلاق حكم يجب الا يصدر الا عن هيئة محترمة متمتعة بصحة الوجدان ، ومسلحة بمعرفة الشرائع الادبية والاجتماعية ، لا الشرائع الفقهية الرجعية . وكما ان الزواج يجب الا يعقد اعتباطاً ، هكذا الطلاق يجب الا يقرر الا

بعد درسٍ دقيق وبحث مستفيض عن اسبابه ومسبباته وعما اذا كان يتعذر ازالتها ، فتعود الى البيت حياته الهنيئة الصالحة .

لا مشاحة في القول ان الزواج يستوجب الكثير من التضحية من طرف الزوجين ، كما يتطلب تنازلاً متبادلاً من الفريقين في حقوق كل منهما ، ولكن اذا لم تأتِ التضحية بالغاية المنشودة ، واذا ظل الشقاء مخيماً على العائلة ، فبقاء الرابطة الزوجية يعدّ جريمة لا يغتفرها العقل والمنطق .

اما الطلاق ، فاذا وجب ان يكون مرجعاً للبائسين والمعذبين ، فيجب ان يكون ملجأ يحق للطرفين المتزاوجين ان يلجآ اليه . ولا اعرف معنى لايثار الرجل على المرأة في الامر ، كما تشرع بعض الطوائف في الشرق . للرجل الحق ان يطلق امرأته ، وليس للمرأة ان تطلب طلاقاً من رجلها . هكذا يشرعون ، وشرعتهم قائمة على ان للرجل دون المرأة حقاً في التفتيش عن سعادته ومسراته ومصالحه . ويتطرف بعضهم باعطاء الرجل حقوقاً كيفية لا تضطره لتقديم اي بيان او حساب عن عمله هذا . هم يعطونه صلاحية طالما استعملها عن هوس وانانية مخزية . يجعلون المرأة العوبة بيد زوجها ، يتركها متى شاء دون ان يكون

لها او لاحدٍ غيرها حق بمناقشته . يكفي الرجل ان يقول لامرأته في ساعة من ساعات غضبه « انك طالقة » فتطلق وتترك بيتاً عملت في قيامه وانهكت قواها في بنيانه ، وتهجر اولاداً هم حبّات قلبها وفلذات كبدها . جريمة من جرائم الشرق على المرأة .

ان تعنّت بعض الطوائف المسيحية بامر الطلاق ، بالرغم من عنجهيته ، لهو افضل من استهتار بعض الطوائف المحمدية به وتسليمه الى الرجل سلاحاً قاطعاً طالما استعمله اعتباطاً فكان استعماله جريمة نكراء .

حبّذا لو تسلم امر الزواج والطلاق شرع مدني محترم ، يقضي على التعنت من جهة ، وعلى الاستهتار من جهة اخرى ، ويحكم بالعدل والمساواة والانصاف لما فيه الخير للفرد وللعائلة وللمجتمع .